الغزل :

الغزل من الفنون الشعرية الجميلة المحببة الى النفس . يُصوّر أشـواق المحبيـن ولواعجهم .وهو شبيه بالنسيب والتشبيب من غير كثير تمييز أو عظيم اختلاف . ومن يتصفّح ديوان الغزل العربي يجده كبيراً وواسعاً ، تغنّى الشعراء من خلاله بالمرأة منذ عصر ماقبل الاسلام ، وقد جعله فريقٌ منهم استهلالاً لمدائحهم وأهاجيهم وحماسياتهم .وخصّص له فريقٌ آخر قصائد ومقطوعات .

---

(١١٦) نكت الهميان ص ١٣٩ ـ ١٤٢ .

(١١٧) الأغاني ١٤ : ٢٠ .

(١١٨) الاتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٥٣ .

(١١٩) ديوانه ص ٢٠١ .

(١٢٠) شعره ص ١٦٥ .

(١٢١) ديوانه ص ١٣٠ .

وارتقى الغزل في عصر بني أمية . وزاد الاقبال عليه . ولحق الشعراءَ المرأة . ووصفوا أمعاناتهم في حُبّها . وقد اختصّ بعضهم بواحدة عاش لها وقضى وهو يحبها. فسموا بالغزليين العذريين ، أو شعراء مدرسة « الغزل العفيف» وعلى رأسهم جميل بن مَعْمَر . وعاش بعضهم الآخر يتصيّد الجمالَ في كلّ مكان ، ويتبع الحسنَ أينما حلّ وارتحلَ للعبث واللذّة . فسموا بالغزليين الماجنين ، أو شعراء مدرسة « الغزل الحسي » وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة . وبقي التياران يسيران في العصر العباسي جنباً الى جنب مع اختلاف في الكمية والنوعية .

ويمثل التيار الأول . أي العفيف ، مجموعة من الشعراء . من أشهرهم ابن ميّادة(١٣٢) ، وأبو حيّة النميري(١٣٣) ، والحسين بن مُطير الأسدي(١٣٤) ، وابن رُهيمة(١٣٥) . وهولاء الأربعة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ومما يستحسن لابن ميّادة قوله(١٣٦) :

سلِ اللهَ صبراً واعترفِ بفراقِ عسى بعدَ بينٍ أنْ يكونَ تلاقِ
ألا ليتني قبلَ الفراقِ وبعدَهُ سقاني بكأسِ المنيّةِ ساقِ

ويَعدُّ العباسُ بن الأحنف ابرز شعراء الغزل العفيف والعشق الشريف في العصر العباسي ، وقد قصر جلّ شعره على صاحبته « فوز » ، ولاحظ أبو الفرج الاصبهاني هذه الظاهرة فقال : « كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً ، من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسنٌ ، ولديباجة شعره رونقٌ ، ولمعانيه عذوبةٌ ولطفٌ . ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرّف في شيء من هذه المعاني »(١٣٧) . ان شعر العباس بن الأحنف يمتاز بالعفّة والودّ والصفاء والنقاء ، وهو رقيق مؤثر يتجاوبُ مع النفس الإنسانية في كل زمان وإنْ قال فيه الدكتور طه حسين : « لم يبلغ إتقان الغزليين من شعراء بني أمية ، ولم يبلغ إجاده العابثين من

---

(١٣٢) طبقات الشعراء ص ١٠٩ ، الأغاني ٣ : ٣٩١ .
(١٣٣) طبقات الشعراء ص ١٤٣ ، الأغاني ١٦ : ٣٠٧ .
(١٣٤) طبقات الشعراء ص ١١٤ ، الأغاني ١٦ : ١٧ .
(١٣٥) الأغاني ٤ : ٣٠٥ .
(١٣٦) طبقات الشعراء ص ١٠٩ .
(١٣٧) الأغاني ٨ : ٣٥٣ .

شعراء بني العباس ، وإنما جاء فاتراً قلما يترك في النفس أثراً قوياً . لأن الفن الذي أراد أنْ يختصَّ به كان قد انقضى عصره . وانتهتْ الأسباب التي أوجدته ومكّنت الناس من اتقانه والاجادة فيه »(١٢٨) . وتابعه في هذا الرأي الدكتور عزالدين اسماعيل فقال : « ومهما يكن من أمر ، فان هذا الشاعر العباسي قد انقطع للغزل . شأنه شأن العذريين وشأن عمر بن أبي ربيعة . وأن نَفَسَهُ الشعري كان أقرب اليهم . وان كنّا ـ فيما طالعنا له من شعر ـ لانجد فيه حرارةَ العُذريين وصِدقهم . ولا خفّةَ ظل عمر بن أبي ربيعة . بنفس الدرجة »(١٢٩) .

كان العباس بن الأحنف مخلصاً في رسم صوره الجميلة للحب العفيف . وحسبك ما قالته الدكتورة عاتكة الخزرجي : « ولستُ أكاتمك الحقيقةَ من أنّي مؤمنةٌ كلَّ الايمانِ بأن الشاعر يملي علينا من تجربةٍ حقيقةٍ عاشها . ولعلَّ أروع لوحة عرض لنا العباس فيها حكاية هواه المعذب تلك التي يحلو له أن يعرضها علينا بين الحين والحين لنراه فيها الظمآن القريب من النبع المحروم من الوِرْد »(١٣٠) . ومن جميل شعره مناجاته للقَطا التي وجدت صداها في كل أُذن ووقعها في كل قلب :(١٣١)

بكيتُ إلى سربِ القَطا حينَ مرَّ بي فقلتُ ومثلي بالبكاءِ جدير :
أسربَ القطا هل من مُعيرِ جناحَهُ لعلّي إلى مَنْ قد هويتُ أطيرَ

إنَّ روحه معلقةٌ بفوز ، لايحيدُ عنها . فهي الوحيدة التي ملكت فؤادَهُ دون الفتيات :(١٣٢)

ماأسمجَ الناسَ في عيني وأقبحَهم اذا نظرتُ فلم أبصرْكِ في الناسِ
حتى متى كبدي حرى مُعَطَّشَةٌ ولا يلينُ لشيءٍ قلبُكِ القاسي

ويلاحظ أنه بالغ في البيت الاول. وهذا من طبائع المحبين وأساليبهم حين يصفون جمال المحبوبة ومفاتنها . وهاهو ذا يقول :(١٣٣)

---

(١٢٨) حديث الأربعاء ١ : ٢٩٤

(١٢٩) في الأدب العباسي، الرؤية والفن ، ص ٢٩٤ .

(١٣٠) العباس بن الاحنف ص ٥٢

(١٣١) الديوان ص ١٦٨ .

(١٣٢) الديوان ص ١٨١ .

(١٣٣) الديوان ص ٢٥٧ .

تَمّتْ وتمَّ الحسنُ في وجهها ... فكلُّ حُسْنٍ ما خَلاها مُحالْ
للناسِ في الشَّهرِ هلالٌ ولي ... في وجهها كلَّ صباحٍ هِلالْ

ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل العفيف عُكّاشة بن عبد الصمد البصري الذي أحبَّ فتاةً تُدعى « نُعيم » . وهي جارية لبعض الهاشميين . وشاءت الصدفُ أنَّ شخصاً اشتراها من مولاتها ورحل بها الى بغداد « فعظم أسفُه وحزنُه عليها ، واستُهيم بها طول عمره . فاستحالتْ صورتُه وطبعُه وخلقُه الى أن فرَّق الدهر بينهما . فكان اكثر وكده وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح به عليها ويبكي(١٣٤) » . وقد وصل به الحال الى التمني في الموت ليستريح من الهموم والاحزان التي راتعبته وهدَّته(١٣٥) :

نُعيم هل بكيتِ كما بكيت ... وهل بَعْدي وفيتِ كما وفيتُ ؟
ألا يا ليتَ شعري كيف بَعدي أصـ ... ـطبارُكِ اذ نأيتِ واذ نأيتُ ؟
فكم من غبْرةٍ ذَرَفَتْ فلما ... خشيتُ عيون أهلي واستحيتُ
نهضت بها مكاتمةً فلما ... خلوتُ ذرفتُها حتى اشتفيتُ
وقلتُ لصحبي لما رماني ... هواكِ بدائهِ حتى انطويتُ
أراني من هموم النفس مَيْتاً ... ولم أرَ في نُعيمٍ ما نَوَيتُ
فليتَ الموتَ عجَّلَ قبضَ روحي ... جهاراً فاسترحتُ وأين ليتُ ؟ !

ومن شعراء الكوفة القلائل في نظم الشعر العفيف عليُّ بن أُديم الجُعفي . فقد تغزَّلَ بفتاة اسمها « مَنْهلة » ، وهام بها ، وشاع أمرهما بين الناس ، حتى وضع أحدهم كتاباً فيهما بعنوان « علي بن أُديم ومنهلة(١٣٦) » . وقد أشار أبو الفرج الأصبهاني إلى خبرهما فقال : « كان بالكوفة رجلٌ من بني أسد يُقالُ له عليُّ بنُ أديم . فهوِيَ جارية لبعض نساء بني عبس . فباعتْها لرجلٍ من بني هاشم . فخرج بها عن الكوفة . فمات علي بن أديم جزعاً عليها بعد ثلاثة أيام من خروجها . وبلغها خبرُه فماتت بعدَهُ . فعمل أهل الكوفة لهما أخباراً هي مشهورة عندهم... وقالوا : آخر من مات من العشق عليُّ بن أديم الجُعْفي(١٣٧) . ومن شعره قوله .(١٣٨)

---

(١٣٤) الاغاني ٣ : ٢٦٠ .
(١٣٥) الاغاني ٣ : ٢٦٢ .
(١٣٦) الفهرست ص ٤٣٦ .
(١٣٧) الأغاني ١٥ : ٣٦٧ .
(١٣٨) الأغاني ١٥ : ٣٦٧ ، معجم الشعراء ص ١٣٥ .

صاحوا الرحيل وحثني صحبي ... قالوا الرُواحَ فطيرُوا لُبّي
واشتقتُ شوقاً كاذ يقتلني ... والنفسُ مشرفةٌ على نَحب
لم يلقَ عندَ البينِ ذو كلفٍ ... يوماً كما لاقيتُ من كَرْب
لا صبرَ لي عند الفراقِ على ... فَقْدِ الحبيبِ ولوعةِ الحبّ

ويمكن أن نضيف الى مَنْ سبق من الشعراء الغزلين المعروفين بالعفّة . المؤمل بن جميل الملقب بقتيل الهوى(١٣٩) . وأبا العتاهية الذي غلب عليه الشوق والهيام حين وقع في حب عُتبة(١٤٠) . وعلي بن الجهم الذي أقام على الوَجد والهوى والحنين والشوق وفياً مخلصاً(١٤١) .

اما اللون الثاني من الغزل فهو الحسيُّ والمكشوف . وكان شعراؤه اكثر عددا من اللون الاول اي الغزل العفيف او العذريّ . وقد خرجوا عن كل عرف وخلق وذوق سليم . وانغمسوا في الملذات . وانهمكوا في تصيد الجواري والقيان والاماء الفاجرات . وجاهروا بفسوقهم وانحلالهم واثامهم . وراحوا يجوبون في دور اللهو والعبث والقصف والغناء دون رادع من خلق او زاجر من دين . وللزندقة والشعوبية دورٌ كبيرٌ في شيوع مثل هذا الغزل . وساعد عليه ايضا تطور الحياة الحضارية وتعدّد الملاهي وتقطّع الروابط الاجتماعية وتفسخها . وذيوع المذاهب والاراء الاباحية التي نشط قسم من الموالي على نشرها(١٤٢) . ومن شعراء هذا التيار حماد عجرد . ولعل اخف شعر له في هذا المجال قوله في جارية تدعى جوهراً(١٤٣) .

انـــي لأهوى جوهراً ... ويحبُّ قلبي قلبها
واحبُّ من حبي لها ... مَنْ ودَّها وأحبَّها
وأحبُّ جاريةً لها ... تُخفي وتكتُم ذنبَها

ومن الثلة المتهتكة المتحللة مطيع بن اياس . فليس من جارية رآها الا وكلف بها وسعى اليها . ومن شعره الذي يسمح المقام بذكره قوله في جارية(١٤٤) :

---

(١٣٩) معجم الشعراء ص ٢٩٩ .

(١٤٠) ستاتي ترجمته مفصلة في هذا الكتاب .

(١٤١) تنظر مقدمة ديوانه ص ٣ ـ ٤٧ .

(١٤٢) ينظر : الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ص ٢٨٧ ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٠٤ ، ٥٠٢ .

(١٤٣) الاغاني ٦٤ ، ٣٤١ .

(١٤٤) الاغاني ٦٣ ، ٢٩٣ .

إنّ قلبي قد تصابى ... بمدما كان انابا
ورماة الحب منه ... بسهام فأصابا
قد دهاه شادنٌ يسـ ... ـبس في الجيد بخابا(١٤٥)
فهو بدرٌ في نقاب ... فاذا القى النقابا
قلتُ شمسٌ يومَ دجنٍ ... خسرتْ عنها السحابا

وثمة شعراء اخرون نظموا مثل هذا الشعر، منهم اسماعيل بن عمار الاسدي(١٤٦)، والمؤمل بن اميل المحاربي(١٤٧)، وبشار بن برد(١٤٨)، وعمرو الخاركي(١٤٩)، والفضل بن عبدالصمد الرقاشي(١٥٠)، وابن الخياط(١٥١)...

ولم يقف بعض الشعراء في غزلهم عند المرأة، بل تجاوزوها الى الغلمان والغلاميات (وهنّ فتيات في زيّ غلمان) وكلاهما بدعةٌ خطيرة، وانحراف مقرف، وخلقٌ شائن. ان الغزل بالمذكر تسرب الى المجتمع العباسي من الفرس كما يرى يوسف حسين بكار في قوله: «ان العامل الاساس في ظهور الميل الى الغلمان هم الفرس الذين نقلوها الى العرب. وساعد عليها عوامل اخرى اذت في مجموعها الى ظهور الغزل بالمذكر كأيّ فنٍ من فنون الشعر الاخرى(١٥٢)، ويخالفه في الرأي محمد النويهي. فيرى الخطأ والظلم معاً في أن يُعزى هذا الانحلال الخلقيّ الى أمة واحدة هي الفرس وانما يعزوه الى كل الأمم التي جمعتها الحضارة الاسلامية. لأنّ الانحطاط إنما نشأ عن اختلاط هذه الأجناس بأديانها المختلفة وعاداتها ومقاييسها ونظمها المتباينة.(١٥٣)

---

(١٤٥) السحاب: الغلالة من قرنفل.
(١٤٦) الأغاني ١١: ٣٦٤.
(١٤٧) نهاية الأرب ٢: ٣٦٦.
(١٤٨) الأغاني ٣: ١٣٥.
(١٤٩) الورقة ص ٥٩.
(١٥٠) طبقات الشعراء ص ٢٣٦.
(١٥١) الاغاني ٢٠: ١ ـ ١٢.
(١٥٢) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ص ١٩٩.
(١٥٣) نفسية أبي نواس ص ٨٨.

إن هذا الداء المقيت ، أو المرض الاجتماعي ، الذي انتقل الى المجتمع العباسي سواءاً أكان من الفرس أم من غيرهم ، سرى في فئة كبيرة من الشعراء آنذاك . ومن أبرزهم أبو نواس(٣٤) ، والحسين بن الضحاك(١٥٥) ، ووالبة بن الحباب(٣٦) الذي يقول فيه الدكتور شوقي حنيف : « إنه هو الذي يتحمّلُ وِزْرَ إفساد أبي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحمّلُ وِزْرَ العصر كلّه وماشاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً(٣٧)»وفي رأينا قبر شعر هؤلاء الخلعاء خير من نشره واشاعته ، ولذلك أعرضنا عن ايراد أمثلة من شعرهم ، واكتفينا بالاشارة الى مواضع تراجمهم في كتاب الأغاني الذي يُعَدُّ أكبر مصدر لأخبارهم وأشعارهم .